مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(أعمال الرسل ١٦:١٦-٣٤)

في تلك الأيام فيما نحن الرسلَ منطلقون إلى الصلاةِ استقبلتنا جاريةٌ بها روحُ عرافَة. وكانت تُكسِبُ مَواليها كسباً جزيلاً بعِرافتها* فطفقت تمشي في إثرِ بولسَ وإثرنا وتصيح قائلةً هؤلاءِ الرجالُ هم عبيد الله العليِّ وهم يبشّرونكم بطريق الخلاص* وصنعت ذلك أياماً كثيرةً فتضجَّر بولسُ والتفت إلى الروح وقال إني آمرك باسم يسوع المسيح أن تخرجَ منها. فخرج في تلك الساعة* فلمَّا رأى مواليها أنّه قد خرج رجاءُ مكسبهم قبضوا على بولسَ وسيلا وجرّوهما إلى السوق عند الحكام* وقدَّموهما إلى الوُلاة قائلينَ إن هذين الرجلَين يبلبلان مدينتَنا وهما يهوديّان* وينادِيان بعاداتٍ لا يجوز لنا قبولها ولا العملُ بها إذ نحن رومانيُّون* فقام عليهما الجمعُ معاً ومزّق الولاةُ ثيابهما وأمروا أن يُضربا بالعِصيِّ* ولمّا أثخنوهما بالجراح ألقوهما في السجن وأوصَوا السجّانَ بأن يحرسهما بضبط* وهو إذ أُوصيَ بمثل تلك الوصيّة ألقاهما في السجن الداخلي وضبط أرجلهما في المقطَرَة* وعند نصف الليل كان

الصعود الإلهي

«لمّا أكملتَ التدبيرَ الذي من أجلنا، وجعلتَ الذين على الأرض متّحدين بالسماويين، صعدت بمجدٍ أيها المسيح إلهنا، غير منفصل من مكان، لكن ثابتاً بغير افتراق وهاتفاً بأحبّائك: أنا معكم وليس أحد عليكم».

«هلمَّ نسمو بعقولنا ونترك على الأرض ما هو أرضي ونترك التراب للتراب، ونرفع العيون والأذهان إلى العلاء نحن المائتين، ونمدّ النظر والحواس نحو الأبواب السماوية، متصوّرين إيّاها جبل الزيتون، ونشاهد الرب منقذنا راكباً على السحاب، لأنّه من هناك ارتقى إلى السموات، ومن ثم وزّع المواهب على رسله، بما أنّه محبّ العطايا، وشدّدهم داعياً إيّاهم كأبٍ ومرشدهم كبنين هاتفاً: لستُ أنفصل عنكم، لأنّي أنا معكم وليس أحدٌ عليكم».

بهاتين القطعتين اللتين نقرأهما في صلاة سَحَر خميس الصعود الإلهي الذي نعيِّد له في ٢٤ أيار هذا العام، يبدأ القديس رومانوس المرنّم قنداقه (القنداق هو ما يُقرأ بعد طلبة الشفاعة الكبرى «خلِّص يا رب شعبك» في صلاة السَحَر وفيه شرح لفحوى العيد ومعناه اللاهوتي) داعياً إيّانا إلى مشاطرة الرسل لحظات الفراق تلك التي مرّوا بها عند صعود الرب مخلّصنا إلى السماء. ففي الأبيات اللاحقة التي نظمها القديس رومانوس في قنداقه بمناسبة عيد الصعود الإلهي (نحن نعرف فقط القطعتين المذكورتين أعلاه) ينقل لنا تصوّراً لحوارٍ جرى بين الربّ يسوع وتلاميذه الذين بعد أن رأوه قائماً من بين الأموات وأرسلهم إلى البشارة، شاهدوه يرتفع عنهم إلى السماء ويبتعد عنهم بالجسد. وفي هذا الحوار شرحٌ للاهوت العيد ومعناه.

إنّ الذي انحدر من السماء بطريقة يعرفها هو وحده، عندما أراد أن يرتفع إلى السماء بسط يديه كما يبسط النسر جناحيه ليظلّل فراخه ويحميهم من كلّ شرّ. إنّ خالق العالم كلّه مدّ يديه اللتين قيدهما مخالفو الشريعة وسمّروهما على الصليب، وبارك بهما تلاميذه، مصوّراً رسم المعمودية، وأرسلهم مملوئين من

العدد ٢٠١٢/٢١

الأحد ٢٠ أيار

أحد الأعمى

تذكار الشهيد ثلاّلاوس

اللحن الخامس

إنجيل السَحَر الثامن

بولسُ وسيلا يصلّيانِ ويسبّحان الله والمحبوسونَ يسمعونهما* فحدثت بغتةً زلزلةٌ عظيمةٌ حتى تزعزعت أُسس السجن. فانفتحت في الحال الأبوابُ كلُّها وانفكت قيود الجميع* فلمّا استيقظ السجّان ورأى أبوابَ السجن أنها مفتوحة استلَّ السيفَ وهمَّ أن يقتل نفسه لِظنِّه أنَّ المحبوسين قد هربوا* فناداه بولسُ بصوتٍ عالٍ قائلاً لا تعمل بنفسك سوءاً فإنّا جميعنا ههنا* فطلب مصباحاً ووثب إلى داخل وخرَّ لبولسَ وسيلا وهو مرتعدٌ* ثمَّ خرج بهما وقال يا سيِّدي ماذا ينبغي لي أن أصنع لكي أخلصَ* فقالا آمن بالربِّ يسوع المسيحِ فتخلصَ أنت وأهلُ بيتك* وكلّماه هو وجميع مَن في بيتهِ بكلمةِ الرب* فأخذهما في تلك الساعةِ من الليلِ وغسل جراحهما واعتمد من وقته هو وذووه أجمعون* ثمَّ أصعدهما إلى بيته وقدَّم لهما مائدة وابتهج مع جميع أهل بيته إذ كان قد آمن بالله.

الإنجيل

(يوحنا ٩: ١–٣٨)

في ذلك الزمان فيما يسوع مجتاز رأى إنساناً أعمى منذُ مولده* فسأله تلاميذه قائلين يا ربُّ من أخطأ أهذا أم أبواه حتى وُلد أعمى* أجاب يسوعُ لا هذا أخطأ ولا أبواهُ. لكن لتظهرَ أعمالُ الله فيه* ينبغي لي أن أعمل أعمالَ الذي أرسلني ما دام نهارٌ. يأتي ليلٌ حين لا يستطيع أحدٌ أن يعمل* ما دمت في العالم فأنا نورُ العالم* قال هذا النور والحكمة (البيتان ٢ و ٣).

عندئذ حلّ في قلوب التلاميذ حزن عميق، لأنّ إلههم وسيّدهم يتركهم، هم الذين تركوا كلّ شيء وتبعوه: «... حلّ على الرسل حزن وألم عميقين. وربما بكوا وتنهّدوا تنهّداً عميقاً، قائلين للمعلّم: كيف تتركنا أيّها الرحيم وتبتعد عمّن أحبّوك؟ ... مبتغانا أن نكون معك ونطلب وجهك الذي يُفرِح نفوسنا. لقد انجرحنا وأُسِرنا عند مرآك العذب، فليس إله آخر سواك. لا تبتعد عنّا بل إبقَ بجانبنا وقل لنا: لستُ أنفصل عنكم، لأنّي أنا معكم وليس أحدٌ عليكم» (البيت ٤). إلاّ أنّ السيّد لمّا رآهم على هذه الحال شدّد عزيمتهم كالأب نحو أبنائه، وبتحنّن قال لهم: «لا تبكوا يا أصدقائي لأنّ الوقت ليس وقت البكاء والنوح بل وقت الفرح، لأنّي أحلّق لأستريح في خيمتي، فإنّي جعلت من السماء مقرّ سكناي، وهي تحيق بي دون أن تحصرني» (البيت ٧).

يطلب الرب من تلاميذه أن يفرحوا ويسبّحوا تسبحة جديدة لأن ما يحصل يحصل لأجلهم، لأنّه يصعد إلى السماء ليعدّ لهم مكاناً مع الآباء القديسين والأبرار والأنبياء: «فالآن إستقيموا وتشدّدوا وافهموا جيداً هذا الصعود: فإنّكم تنظرونه على أنّه صعود الجسد وليس صعود الألوهة، لأنّ هذا الجسد الذي ترونه هو الذي يصعد إلى العلاء، أمّا ألوهتي فحاضرة في كل مكان. إلاّ أنّه مع جسدي الظاهر هذا يصعد ما هو غير ظاهرٍ فيّ، لأنّي اتحَدْتُ غيرَ الظاهر مع ما هو ظاهر. إنّي واحد، منظور وغير منظور في الوقت نفسه. إنّي في الحقيقة الذي تنظرونه ولم أتغيّر، كما قال الكتاب (ملاخي ٣: ٦). إنّي غير مائت ومشابه لكم في آن، أعلوكم ولكنّي حاضر بينكم: لستُ لأنفصل عنكم، لأنّي أنا معكم وليس أحدٌ عليكم» (البيت ٩).

ثمّ أمر الرب رؤساء الملائكة لفتح الطريق التي ستدوسها قدماه الطاهرتان، فهتفوا عند أمره: «إرفعوا الأبواب وأفتحوها على مصراعيها لأنّ سيّد المجد مقبل»، وهكذا هرعت كلّ قوات السموات لتعدَّ له من السحب مركبةً، ستحمله إلى حضن الآب، لأنّ هناك عرشه الأزلي الذي لم يغادره قط (البيتان ١١ و١٢). عندئذ رتّل الرسل على طريقة داود: «صعد الله بتهليل، الرب بصوت البوق»، وإذا بملاكين أعلنا لهم أنّه كما صعد الرب إلى السموات هكذا سيعود أيضاً. إنّ إعلان الملائكة يؤكّد صعود الرب إلى السماء حيث تسكن هي، فعند رؤياها إيّاه هناك نزلت لتعلن للرسل الحدث. فإنّ الرب يأمر ملائكته، وبواسطتهم يعرّفنا بتدبيره المحبّ البشر، هو المشرق من العذراء. وُلد فأعلنت الملائكة ولادته، وقام من بين الأموات وفعلت الملائكة الأمر نفسه، وهكذا صعد فأعلنت الملائكة لنا صعوده الإلهي (البيت ١٥).

على الرسل أنّ يقفوا في وجه المضلّين ويتسلّحوا ضدّ المفترين، قائلين لأولاد الهلاك: «أين الذي وضعتموه في القبر ميتاً؟ أين الذي حرسه الجند وختموا عليه؟ كيف سُرق؟ ومن أخذه؟ ... هل سُرق من القبر؟ فكيف إذاً أرسل من السماء

وتفل على الأرض وصنع من تفلته طيناً وطلى بالطين عيني الأعمى* وقال له اذهب واغتسل في بركة سلوامَ (الذي تفسيرهُ المرسَل). فمضى واغتسل وعاد بصيراً* فالجيران والذين كانوا يرونه من قبلُ أنّه كان أعمى قالوا أليس هذا هو الذي كان يجلِسُ ويستعطي. فقال بعضهم هذا هو* وآخرون قالوا إنّه يشبهه. وأمّا هو فكان يقول إنّي أنا هو* فقالوا له كيف انفتحت عيناك* أجاب ذاك وقال إنسانٌ يقالُ له يسوعُ صنع طيناً وطلى عينيّ وقال لي اذهب إلى بركةِ سلوامَ واغتسل. فمضيت واغتسلت فأبصَرْتُ* فقالوا له أين ذاك. فقال لا أعلمُ* فأتوا به أي بالذي كان قبلاً أعمى إلى الفريسيين* وكان حين صنع يسوعُ الطينَ وفتح عينيه يومَ سبتٍ* فسألهُ الفريسيون أيضاً كيف أبصر. فقال لهم جعل على عينيّ طيناً ثمّ اغتسلت فأنا الآن أبصِرُ* فقال قومٌ من الفريسيين هذا الإنسان ليس من الله لأنّه لا يحفظ السبتَ. آخرون قالوا كيف يقدِرُ إنسانٌ خاطئٌ أن يعمل مثلَ هذه الآيات. فوقع بينهم شِقاقٌ* فقالوا أيضاً للأعمى ماذا تقولُ أنت عنه من حيث إنّه فتح عينيك. فقال إنّه نبيٌّ* ولم يصدّقِ اليهود عنه أنّه كان أعمى فأبصر حتى دعوا أبوي الذي أبصر* وسألوهما قائلينَ أهذا هو ابنُكما الذي تقولان إنّه وُلد أعمى. فكيف أبصرَ الآن* أجابهم أبواهُ وقالا نحن نعلمُ أنّ هذا وَلَدُنا وأنّه وُلد أعمى* وأمّا كيف أبصر الآن فلا نعلم أو من فتح عينيهِ

رسالته هذه: لا تخافوا منهم لأنّهم لن يقووا عليكم، كما سبقت فقلت لكم: لستُ أنفصل عنكم، لأنّي أنا معكم وليس أحدٌ عليكم» (البيت ١٦).

بعد هذا كلّه «... رفع التلاميذ عيونهم والأيادي مبتهلين إلى ملك السماويّات والأرضيّات وصارخين: أيّها المنزّه عن الخطأ، هبنا سلامك، ومن خلالنا لعالمك، بشفاعات التي ولدتك. إنّ العدوّ لا يحتمل مشاهدة الصالحات التي تصدر عنّا، فاطرده عنّا بعيداً أنت القائل: لستُ أنفصل عنكم، لأنّي أنا معكم وليس أحدٌ عليكم» (البيت ١٨).

خدمة الذبيحة الإلهية

في وسط القربانة ختم مربّع الشكل، عليه أحرف يونانية معناها «يسوع المسيح الغالب»، وهذا هو الجزء (وجه القربانة ولبّها ولكن دون أسفل القربانة) الذي سوف يُقتطع من القربانة ليعطى فيما بعد مناولة للمؤمنين ويسمّى الحَمَل. يغرز الكاهن الحربة ويمررها على مدى جانب الختم الأيمن وهو يقول: «مثل خروفٍ سيق إلى الذبح» (اشعياء ٥٣: ٧) بتسليمه ذاته للصلب فدية عن الخروف الضال (نحن)، صار المسيح هو الحَمَل الطاهر البريء من العيب، حمل الفصح الإلهي الجديد، الذي كان يرمز إليه حمل الفصح اليهودي قديماً. وهو حمل الله الرافع خطيئة العالم، كما قال عنه سابقه المجيد يوحنا المعمدان. يقول القديس غريغوريوس اللاهوتي: «كما أن جلد الخروف صار رداء لستر عري جدّينا الأولين، فإن تعرية المسيح على الصليب صارت الرداء الذي يستر عري خطيئتنا».

ثم يقطع الكاهن عن يسار الختم ويقول «ومثل حَمَلٍ بريء من العيب صامت أمام الّذي يجزّه هكذا لا يفتح فاه» (إشعياء ٥٣: ٧). صمتُ المسيح في الالام دلالة على قبوله تلك الآلام طوعاً وباختياره. «أنا أضع نفسي لآخذها أيضاً. ليس أحد يأخذها مني بل أنا أضعها من ذاتي» (يو ١٠: ١٧). وفي الاستجوابات أمام رؤساء الكهنة وأمام بيلاطس بقي يسوع صامتاً، فزاد غضب أولئك وذاك، لأنّهم ما فهموا البتة سر هذا الصمت.

ثم يقطع الكاهن من فوق ويقول «بتواضعه ارتفعت حكومته» (أع ٨: ٣٣). بتجسّده، «أخلى (المسيح) ذاته آخذاً صورة عبد» (في ٢: ٧). الكلمة الكائن قبل كل الدهور، الذي به كان كل شيء ومن دونه لم يكن شيء مما كوّن (على ما في مطلع إنجيل يوحنا ١:٣)، هذا هو نفسه الذي صار إنساناً. بل هذا هو نفسه، الله الكلمة، الذي أخذ على عاتقه مأساة البشرية بماضيها وحاضرها ومستقبلها: أطاع حيث تمرّدنا، تواضع حيث تكبَّرنا، تحنَّن حيث قسونا. نحن بعناه بأبخس الأثمان، ثلاثين من الفضة، أما هو فاشترانا بدمه، وموت الخالق البار عن خليقته العاقّة أمر يفوق التواضع في أسمى آياته. يوم الجمعة العظيمة تنظر الكنيسة إلى مسيحها على صليب فدائه وتخاطبه قائلة

فنحن لا نعلم. هو كاملُ السنّ فاسألوه فهو يتكلّم عن نفسه* قال أبواهُ هذا لأنهما كانا يخافان من اليهود لأنّ اليهود كانوا قد تعاهدوا أنّه إن اعترف أحدٌ بأنّه المسيحُ يُخرَجُ من المجمع* فلذلك قال أبواه هو كاملُ السنّ فاسألوهُ* فدعوا ثانيةً الإنسانَ الذي كانَ أعمى وقالوا له أعطِ مجداً لله. فإنا نعلم أن هذا الإنسان خاطئٌ* فأجاب ذاك وقال: أخاطئٌ هو لا أعلمُ. إنما أعلم شيئاً واحداً أني كنت أعمى والآن أنا أبصرُ* فقالوا له أيضاً ماذا صنع بك. كيف فتح عينيك* أجابهم قد أخبرتكم فلم تسمعوا. فماذا تريدون أن تسمعوا أيضاً. ألعلّكم أنتم أيضاً تريدون أن تصيروا له تلاميذ* فشتموه وقالوا له أنت تلميذ ذاك. فأمّا نحن فإنا تلاميذُ موسى* ونحن نعلم أنّ الله قد كلّم موسى* فأمّا هذا فلا نعلم من أين هو* أجاب الرجلُ وقال لهم إن في هذا عجباً أنّكم ما تعلمون من أين هو وقد فتح عيني* ونحن نعلم أن الله لا يسمعُ للخطأة. ولكن إذا أحدٌ اتقى الله وعمِلَ مشيئتَه فله يستجيب* منذ الدهر لم يُسمَع أن أحداً فتح عيني مولودٍ أعمى* فلو لم يكن هذا من الله لم يقدر أن يفعل شيئاً* أجابوه وقالوا له إنك في الخطايا قد وُلدتَ بجملتك. أفأنت تعلّمنا. فأخرجوه خارجاً* وسمع يسوعُ أنهم أخرجوه خارجاً. فوجده وقال له أتؤمنُ أنت بابن الله فأجاب ذاك وقال فمَن هو يا سيّدُ لأؤمن به* فقال له يسوع قد رأيته والذي يتكلّمُ معك هو هو* فقال له قد آمنت يا ربُّ وسجد له.

«أيها المتردّي النور مثل الثوب»، إذ إن الكنيسة رأت في هذا التواضع الأقصى أبهى تجلّيات مجد المسيح. لا بد من الإشارة هنا إلى أننا لا نمجّد في آلام المسيح كثافتها أو قسوتها، بل من احتملها بملء طوعه، الله الذي لا يقاربه ألم.

أخيراً يقطع من الأسفل ويقول: «أما جيله فمن يصفه» (أع ٨: ٣٣). كلمة «جيله» في هذه الآية مقصود بها وجوده كابن الله الوحيد. وولادة الإبن الإله، من الآب الإله، لا يمكن بأي شكل من الأشكال التعبير عنها بلسان ولا استيعابها بعقل. بل إن مجرّد مقاربتها «عقليًّا» فيه خطر الضلالة، كما صار مع الهراطقة، القدماء منهم والجدد. لعلّ في وجود هذه الآية هنا دعوة إلى المؤمن أن سلّم عقلك لله لينيره، فتنفتح ذاتك لاستقبال السر الفائق كل وصف. تجدر الإشارة هنا إلى أن الكاهن، أثناء قطع القربانة من الجهات الأربع، لا يدع الحربة تخترق أسفل القربانة أبداً، المسيح عندما ولد بالجسد حفظ بتولية أمه (الدائمة البتولية)، وهذا المكان من القربانة يرمز إلى بطن العذراء القديسة حيث اتخذ «حمل الله» جسد بشريتنا.

بعد القطع من الجهات الأربع يفصل الكاهن الحمل عن القربانة (أي وجه القربانة ولبّها عن أسفل القربانة) ويضعه في وسط الصينية المقدسة وهو يقول: «لأن حياته قد ارتفعت من الأرض». في إنجيل يوحنا (١٢: ٣٢) يقول المسيح الرب «وأنا إن ارتفعت عن الأرض جذبت إلي الجميع». في قول الكاهن «لأن حياته ارتفعت عن الأرض» ربطٌ بين الوعد الإلهي القديم وقول الرب يسوع أعلاه، هذا القول الذي تحقق بالفعل لما ارتفع الرب على الصليب. فالخليقة بأسرها، بماضيها وحاضرها ومستقبلها، افتُديَت بذبيحة المسيح. «جذبت إلي الجميع»، يقول السيد الرب. وحصول الذبيحة «خارج اسوار المدينة» يرمز أيضاً إلى هذا. يقول القديس يوحنا الذهبي الفم ان ارتفاع المسيح على الصليب طهّر لا البشر وحسب، بل الجو أيضاً لأن الحمل الإلهي ذُبح عالياً وفي العراء، والأرض أيضاً تطهّرت بقطرات الدم الإلهي التي سالت عليها. الجذع العامودي للصليب ربط الأرض بالسماء بالجسد الإلهي الممدود عليه، وذراعا المسيح المفتوحتان على الجذع الأفقي ضمّتا الخليقة بأسرها، وقدّمتا مفاعيل الذبيحة الفدائية للجميع.

نقرأ في سِفر أعمال الرسل (الإصحاح ٨) أن الرسول فيليبس لما التقى كنداكة وزير ملكة الحبشة وسمعه يقرأ في سِفر إشعياء، انطلق من هذا الكتاب عينه ليبشّره بيسوع المسيح وخلاصه. لأجل هذا تُتلى هذه الآيات من سِفر إشعياء (والمكرّرة في سفر أعمال الرسل ٨: ٣٢-٣٣) في هذه المرحلة من خدمة الذبيحة: من هذه الأقوال النبوية تبدأ البشارة بخلاص المسيح، الحاصل بحضوره فيما بيننا وبذبيحته.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb